ذكر فتح البيت المقدس

قال المؤرخ: لمّا فرغ السّلطان الملك النّاصر من أمر عسقلان ومايجاورها سار إلى البيت المقدس، فكان وصوله إليه في يوم الأحد الخامس عشر من شهر رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة. وكان به البَطْرك المعظم عندَهم، وهو أعظم شأناً من ملكهم، وبه أيضاً باليان بن بارزان صاحب الرّملة، ومَنْ خلص من فرسان الفرنج من حطّين، واجتمع به أهل عسقلان وغيرها، كلُّهم يرى الموت عليه أهون من أن يُملك البيت المقدّس.

فنزل السّلطان بالجانب الغربي، وأقام خمسة أيّام يطُوف حول البلد لينظُرَ مِن أين يقاتلهُ، ثمّ انتقل إلى الجانب الشّماليّ يوم الجمعة، العشرين من الشّهر، وكانت عدّةمن به من المقاتلة ستين ألفاً غير النّساء والصبيان، فنَصب السّلطان المجانيق في تلك الليلة، ونصب الفرنج على السُّور مجانيق أيضاً، وقاتلوا أشد قتالٍ رآه النّاس، لأنّ كلامن الفريقين يرى ذلك عليه من الواجبات لايحتاج فيه إلى سُلطان. وكانت خيّالة الفرنج يخرجون في كلّ يوم إلى ظاهر البلد فيقاتلون ويبارزون، وتوالى الزّحف، ونقب المسلمون السّور مما يلي وادي جهنم.

فلما رأى الفرنج ذلك أخلدوا إلى طلب الأمان، وبعثوا جماعةً من أكابرهم في ذلك؛ فامْتَنع الملكُ النّاصر من ذلك وقال: لاأفعل بكم إلا كما فعلتم بأهله حين ملكتموه في سنة إحدى وتسعين وأربعمائة من القتل والسبي، فلما رجع إليهم، أرسل باليان بن بارزان يطلب الأمان لنفسه ليحضر إلى الملك النّاصر، فأمنّه، فحضر إليه وسَأله الأمان، فلم يُجْبه، واستعطفه فلم يتعطف، واسترحمه فلم يرحمه، فلّما أيس منه قال له مامعناه: أيها السّلطان، اعلم أننا في هذه المدينة في خَلق كثير لايعلمهم إلا الله تعالى، وإنما يفترون عن القتال رجاءَ الأمان، وهم يكرهون الموت

ويرغبُون في الحياة؛ فإذا رأينا أن الموت لابدّ منه والله لنقتلنّ أبناءنا ونساءنا، ونُحرق أموالنا وأمتعتنا، فلا نترككم تغنمون منها ديناراً واحداً ولادرهماً، ولاتَسْبُون ولاتأسِرُون رجلاً ولا امرأة، فإذا فرَغْنا من ذلك أخربنا الصّخرة والمسجد الأقصى؛ وغير ذلك من المواضع الشّريفة؛ ثم نقتل مَنْ عندنا من أسرى المسلمين، وهم خمسة آلاف، ولانترك لنا دابَّةً ولاحيواناً إلا قتلناه، ثمّ نخرج إليكم، كلُّنا، فنقاتلكم قتال مَنْ يريد يحمي دمه ونفْسَه، فلا يُقْتَل الرّجل منا حتى يَقْتُل؛ فإمّا أن نموت أعزاء أو نظفر كراماً.

فلمّاسمع الملكُ النّاصر كلامه استشار عند ذلك أصحابه، فأشاروا عليه بمُوافقتهم.

ووقع الّصلح على أن يسلّموا أسرى المسلمين، ويبْذُلوا عن كلِّ رجلٍ من الفرنج عشرة دنانير، وعن كلّ امرأة خمسة، وعن كلّ طفلٍ وطفلةٍ دينارين، يستوي في ذلك الغنّي والفقير، وبذَل ابن بارزان في الفقراء ثلاثين ألف دينار من ماله، وعلى أن تكون المدّة أربعين يوماً، فمن أدّى ذلك قبل المدّة خلص، ومن تأخر استُرِق.

وتسلّم السّلطانُ المدينة في يوم الجمعة السّابع والعشرين من شهر رجب، وكان يوماً مشهوداً، ورُفعت الأعلام الإسلامية على الأسوار، ورتّب السّلطان على أبواب البلد أمناء من الأمراء يأخذون من أهله ماستقرّ عليهم، فخانُوا، ولو أدُّوا الأمانة لامتلأت الخزائن.

قال: وصلّى الملك النّاصر الجمعة الثّانية في رَابع شعْبان في قبّة الصّخرة،وكان الخطيبُ والإمامُ القاضي محيي الدّين بن الزّكي قاضي دمشق.

ثم رتّب له خطيباً وإماماً، ونقل إليه المِنْبر الذي كان عَمِله الملكُ

العادل نور الدَّين بحلب برَسْم البَيْت المقدّس إذا فتحه، وكان بين عَمَله وفَتْح البيت المقدّس مايزيدُ على عشرينَ سنة.

ثمّ تقدّم أمر السّلطان بعمارة المسجد الأقصى ونَحْوِ ماكان الفرنج صنعُوه من الصُّوَر على عادتهم، ونقل إليه المصَاحِف، وطهّره من أدْنَاس الكُفر، رحمه الله تعالى، وتقدّم بعمل الرُّبُط والمدارس، وجَعَل دار الأسْبتار مدرسةً للشّافعية.

ذكر رحيله ومحاصرة صور

قال المؤرخ:وأقام السّلطان الملك النّاصر بالبيت المقدّس إلى الخامس والعشرين من شعْبَان من السّنة، ثمّ سار لقَصد محاصرة صُور وقد اجتمع فيها خلقٌ كثير من الفرنج، وقِدم إليها المَرْكِيس في البحر بأموال عظيمة؛ وكانت عادتُه أن يحضر إلى البَيْت المقدّس بأموالٍ يفرّقها، فلمّا حضر في هذا الوقت وَوَصل عكّا فرآها قدْ خرجَت عن أيدي الفرنج سار إلى صُور فملكها، وأنْفَق مامَعُه على مَنْ بها، فقَوِي أمرُه وانحاز إليه جميعُ مَنْ خلص بالأمان من سائر البلاد، فأنفق على سور صُور وخَنَادقِها، وعمَّقها، فصَارت كالجزيرة لايُمكن الوصول إليها.

فوصَل الملكُ النّاصر إلى عكّا في مستهل شهر رمضان، فأصْلَح من شأنها، ثم رحل عنها ونَازَل صور في تاسع شهر رمضان ونزل بالقرب من البلد؛ ثمّ نزل على تل يقاربُ صور في الثاني والعشرين من الشّهر، وقسّم القتال على العسْكر لكلِّ جَمْعٍ منهم وقتٌ معلوم. واستدعى الأسطول المصريّ، وكان بعكّا، فجاءته عشر شوانٍ، وكان للفرنج في البحر مراكب فيها رماة الجروخ والزنبوركات، يرمُون مَنْ دنا من البحر، فاسْتَطال الأسطول عليها، وأحاط بهم المسلمون وقاتلُوا براً وبحراً؛ ثمّ أغفَلوا أمْرَهم فملك الفرنج من الشواني خمسةً وأسرُوا مقدَّمها.

ثمّ كانت حروبٌ كثيرة ووقائع.

ثـمّ رحل السّلطـان عنها في آخـر شـوّال، وهو أول كـانون، وسـار إلى عكّـا، وأذن للعساكـر بـالعَوْد إلى أوطـانهم للـرّاحـة في الشتاء والعَـوْد في الربيـع، فعادت عساكـرُ الشّرق والمَوْصِل والشّام ومِصر، وبقـي السّلطان في عكا في حَلْقَته وخاصته، وردّ أمرها إلى الأمير عز الدّين جُرْدَيك.

ذكر فتح هُونين

قـال المؤرخ: كـان السّلطـان لمّا فتَـح تِبْنِين امتنـع مَـنْ بهُـونين مـن تسليمها، وهـي من أحْصَـن القلاع وأمْنعَهـا، فرتـب عليها مـن يَحْصُرها؛ فطَلَبَ مَنْ بها الأمـان لمّا كان السّلطان يحاصر صُور، فأمّنهم، ونـزلُوا منها وتسلّمها.

واتفق أن فتح هـذه المدن والحصون جميعها من جبلـة إلى سرمينية، مع كثرتها، كان في ست جمع مع أنها في أيدي أشجـع الناس وأشدهم عداوة للمسلمين، فيسر الله فتحها في أيسر مدة.

ذكر فتح حصن برزية

قـال: ولما رحـل السلطـان مـن قلعـة الشغـر سـار إلى قلعـة بـرزيـة، وبحصانتها يضرب المثل، وهي تقابـل حصن أفامية وتناصفها في أعمالها، وبينهما بحيرة تجتمع مـن ماء العاصي، ومن عيـون تنفجر من جبل بـرزية وغيره.

وكـان أهلهـا أضر شيء على المسلمين يقطعـون الطّـريـق ويبلُغُـون في الأذى.

فنَزل السّلطان شرقيَّها في رابع عِشْري الشّهر، وركب من الغَد وطاف عليها لينظُر موضعاً يقابلها منه، فلم يجده إلامن جهة الغرب وهذه القلعة لايمكن أنْ تُقاتل من جهتي الجنوب والشّمال البتَّة، فإنّ جبَلها لايُصعد إليه من هاتين الجهتين؛ وأمّا الجانب الشرقي فلايمكن الصُّعود منه لِغَير مقاتل لِصُعوبته وارتفاعه؛ وأما جِهُةُ الغرب فإن الوادي المُطيف بجبلها قد ارْتَفع هناك ارتفاعاً كثيراً حتى قارب القلعة بحيث يصل منه حجر المنجنيق والسّهام، فنزَله المسلمون ونصبوا المجانيق، ونصبَ أهلُ القلعة منجنيقاً، فرأى السُّلطان المجانيق لاتُفيد، فتركها وعزم على الزَّحف ومُكَاثرتها بالرّجال؛ فقسَّم العسكر ثلاثة أقسام، يزحفون بالنَّوبة، فطال ذلك على أهْلها وعجزوا عن مُقاتَلتهم فملكَها المسلمون عنْوةً ونهبُوا وأسرُوا وسبَوْا،وأخذوا صاحبها وأهْلَه، وأمْسَتْ خاليةً خاوية، وألقى المسلمُون النّار في بعْض البيُوت فاحترقت.

ذكر فتح قلعة دَرْبَسَاك

قال: ثمّ رحَل السّلطان بعد فتُوح برزيّة من الغَد فأتى جسرالحديد، وهو على العاصي بالقرب من أنطاكيّة، فأقام هناك حتّى وافاه من تخلَّف عنْه من عسكره ثمّ سار إلى قلعة دَرْبَساك، فنزل عليها في ثامن شهر رجب سنة أربع وثمانين وخمسمائة، وهي من أحصن معاقل الدّاوية وقلاعهم التي يدخرونها عند نُزول الشدائد بهم، فنَصَب عليها المجانيق، وتابَع الرّمْيَ بالحجارة، فهدم قطعةً يسيرة من سُورها؛ ثمّ أمر بالزّحف عليها ومهاجمتها؛ فتوالى الزّحف والقتال، وتقدَّم النَّقّابون فنقبوا منها بُرجاً وعلقوه فسقط، وطَلَب أهلها الأمان فأمنَّهم على ألا يخرجُوا منها بغير ثيابهم خاصّةً، فخرجوا كذلك، وتوجهوا إلى أنطاكيّة، وتسلمها في تاسع عشر شهر رجب.

ذكر فتح قلعة بَغْرَاس

قال:ثمّ سار عن دَرْبَسَاك إلى قلعة بَغْرَاس، فحصرها بعد أن اختلف أصحابُه في حَصْرها، فمنهم من أشار به، ومنهم من نهى عنه وقال: هو حِصنٌ حصينٌ، وقلعةٌ منيعةٌ، وهي بالقرب من أنطاكية، فسار إليها وجعل أكثر عَسْكره مُقابل أنطاكية يغيرون على ضِيَاعها، وبقي هو في بَعْض أصحابه على القَلْعة ونصب عليها المجانيق فلم يؤثر فيها، فغلب على الظُّنون تعذُّر فَتْحها، فبينما هُم في ذلك إذ جاءَ رجلٌ من القلعة يطلب الأمان لرسولٍ، فأعطيه، وجاء رسولٌ يطلب الأمان لأهلها، وسلَّموها على قاعدة دربساك، فأجابهم إلى ماطلبوا، وعادالرّسول ومعه الأعلام السُّلطانية فرُّفعت على رأس القلعة، وتسلّمها السّلطان وأمر بتخريبها فخربت.

ذكر الهدنة بين المسلمين وبين صاحب أنطاكية

قال: ولمَّا فتح السّلطان بغراس قصد حصار أنطاكيّة فجاءته رسُل بيمند تسأله الهدنة ثمانية أشهر بحيث يُطْلِق جميع من عنده من أسْرى المسلمين، فاستشار السّلطان أصحابه، فأشار أكثرُهم بذلك ليستريح العسكرُ ويجدِّدوا مايحتاجون إليه، فأجاب إلى ذلك، ووُقعت الهدنة ثمانية أشهر أولها تشرين الأول.

وتوَّجه السّلطان إلى حلب فوصل إليها في ثالث شعبان، وفرَّق العساكر الشّرقية: عماد الدّين زنكي بن مودود صاحب سنجار، وعَسكر الموصل، وغيرهما، ثمّ رحل إلى دمشق فدخلها في أول شهر رمضان من السّنة.

ذكر فتح الكرك والشوبك ومايجاورهما

قد ذكرْنا أنّ السّلطان كان قـد جعل على الكرك من يحصُره، وهو سعدُ الـدّيـن كمشبـه، في أوّل سنة أربـع وثمانين؛ فـلازَمَ الحصـار هـذه المدَّة الطـويلة حتـى نفـدت ذخـائرُ الفرنـج، وأكلـوا دوابَّهم، فـراسلوا الملـكَ العادلَ أخـا السّلطان، وكـان السّلطان قد جعلـه بتلك النّـواحي في جَمْع من العسكر، وسـألوهُ الأمان، فأجـابهم إلى ذلك، وأرسل إلى سعْد الـدّين مقدّم العسكر فتسلّم القلعة منهم وأمّنهم.

وتسلّم أيضاً ماقَـارَب هذا الحصن من الحُصون وهو الشـوبك، وهرمز، والوعيرة، والسلع فأمنت القُلوبُ من تلك الجهة.

ذكر فتح قلعة صفد

قـال: ولمَّا وصل السّلطـان إلى دمشـق أشير عليـه أن يفرّق العسـاكـر، فقال: إنّ العمـر قصير والأجل غير مـأمون، وقـدْ بقي بيـد الفرنـج هذه الحصون: صفد، وكوكـب، ولابدّ من الفَراغ من ذلك فـإنّهما في وَسَط بلاد الإسلام، فـأقام بدمشـق إلى منتَصف شهـر رمضان من السّنـة، وسار إلى قلعة صفـد، فحَصرها ونصـب عليها المجانيـق، وداوَمَ الرَّمـي ليلاً ونهاراً، فسألوا الأمان، فأمنّهم وتسلّمها، وخرج أهلها إلى صور.

ذكر فتح كوكب

قـد قـدمنـا أنّ السلطـان كـان قـد جعـل على كـوكـب الأمير قـايماز النّجمي. فلّما حصر السّلطـان صَفَد أرسـل منْ بِصُور مِـنْ الفرنـج نجدةً من جهاتهم إلى كوكب، وهم مائتـا رجُلٍ من الشُّجعان، فظَفر بهم قايماز فقتلهم عـن آخرهـم، وأرسل إلى السلّطـان المقدَّمين عليهـم، وهما رجلان

من فرسان الأسبتار، فأمر بقتلهما، فقال أحدهما: ما أظن أنّنا ينالنا سوءٌ بعد أنْ رأينا وجهك الصّبيح، فعفا عنهما واعتقلهما.

ولما ملك صَفَد سار عنها إلى كوكب وشّدد الحصار ووالى الزّحف، وأشْرف على أخذها، فسأل الفرنج الأمان فأمنّهم وأطلقهم، وتسلّم الحِصّن في منتصف ذي القعدة سنة أربعٍ وثمانين وخمسمائة.

فالتحق مَنْ كان به بصُور فقويت شوكتهم وكثروا، لأنه اجتمع عندَهُم شجعانُ الفرنج وكُماتهم، وتابعوا الرّسل إلى ملُوك الفرنج بالأندلس وصِقِلية والجزائر يستغيثون بهم ويسألون الأمداد، فكان من أمرهم مانذكره إن شاء الله تعالى.

قال: ثمّ سار السّلطان إلى البيت المقدّس فعيَّد فيه عيد الأضحى، ثمّ سار منه إلى عكّا وأقام بها إلى أن انسلخت السنة.

وفي سنة أربع وثمانين وخمسمائة ثارَ بالقاهرة اثنا عشَر رجلاً من الشّيعة، ونادوا بشعار العلويّين، وصاحوا: يالَعَليّ، وسلكوا الدُّروب يُنادون، ظناً منهم أن أهل البلد يُلبُّون دعوتهم ويخرجون معهم، فيعيدون الدولة العُبيديّة ويملكون البلد ويُخرجون مَن بالقصر من العلويين؛ فلم يُجبهم أحد من الناس.

فلّما خاب سعيُهم تفرّقوا فأُخذوا، وكُتب بذلك إلى السّلطان فأهمه وأزعجه.

فقالَ له القاضي الفاضل عبْد الرّحيم: ينبغي أن يفرح السّلطان بذلك ولايحزن، حيث عَلِمَ مِن بواطن رعيّته المحبَّة والنّصيحة، وتَرْك المَيْل إلى عدُوّه، ولو وضَع السُّلطان جماعةً يفعلون مثل هذه الحالة ليَعلم بواطن أصحابه ورعيّته، وخسر الأموال الجليلة لكان قليلاً، فسُرِّيَ عنه.

- ١٠٥٨٢ -

ذكر فتح شقيف أرنون

وفي شهر ربيع الأول سنة خمسٍ وثمانين وخمسمائة سارَ السُّلطان إلى شقيف أرنون، وهو من أمْنَع الحصون، ليحصره،ونزل بمرج عُيون، فنزل صاحبُ الشقيف، وهو أرناط صاحب صَيْدا، إلى السّلطان؛ وكان من أكثر النّاس دَهاءً ومكراً فقال: أنَا محبٌّ لك ولدَوْلتك، ومعترف بإحسانك، وأخاف أن يطّلع المركيس على مابَيْني وبَيْنَك فينال أوْلادي وأهلي منْه أذىً، فإنّهم عندهُ بصُور؛ وأحبّ أن تمهلَني حتى أتوصّل إلى تخليصهم من عنده، وحينئذٍ أحضر أنا وهم إلى عندك ونسلّم الحصن إليك، ونكون في خدمتك، نقنع بما تعطينا من الإقطاع، فأجابه السلطان إلى ذلك وظنّ صدقه، واستقرَّ الأمر بينهما أن يسلّمَ الشقيف في جمادى الآخرة.

وأقام السّلطان بمَرْج عُيون ينتظر الأجل وهو قلقٌ مفكرٌ لقُرب انقضاء الهدنة بينه وبين صَاحب أنطاكية، فأمر تقي الدّين ابن أخيه أن يسير فيمن مَعَهُ من عساكره ومَنْ يأتيه من بلاد الشّرق، ويكون مقابل أنطاكيّة، لئلا يُغير صاحبُها على مايجاورهُ من بلاد الإسلام عنْد انقضَاءِ الأجل.

وكان السّلطان أيضاً منزعِجَ الخاطر لِمَا بلغَه من اجْتماع الفرنج بصُور، وَمَا يصلُ إليهم من الأمداد، وأنّهم اجتمعوا في خلق كثير، وخرجُوا من مدينة صُور إلى ظاهِرها؛ فخاف أنْ يترُك الشّقيف وراءَ ظهره، وكان أرْنَاط في هذه المدّة يشتري الأقوات من سُوق العسكر، والسّلاح، وغيرَ ذلك مما يحصّن به شقيفه، فيبلُغ السّلطان فلا يُنكره بحسُن ظنّه، وكان قصْدُ أرناط المطَاولةَ إلى أن يظهر الفرنج من صور.

فلما قاربَ الأجل تقدّم السلطان إلى الشّقيف، واستدعى أرناط وقد

بقي من الأجل ثلاثة أيّام، فجاءه، فتحدّث معه في تَسْليم الحصن، فاعتذر بأولاده وأهله وأنّ المركيس لم يمكِّنهم من المجيء إليه، وطلَب المهلة مدّةً أخرى، فحينئذ تحقق السّلطان مَكْرَه وخداعه، فأخذه وحَبَسه، وأمره بتَسْليم الشَقيف فطَلَب قسّيساً وحمَّله رسالةً سراًّ، وأظهر أنّه أمره بتَسْليمه؛ فامْتنع مَنْ بالحصن من تَسْليمه. فسيرَّ أرناط إلى دمشق وسَجَنه، وتقدّم إلى الشّقيف وضَيَّق على مَنْ به، وتَرَك عليه من يحفُظه من الوصول إليه، فتسلّمه في يوم الأحد خامس عشر شهر ربيع الأول سنة ست وثمانين، وأطلق صاحبه.

ذكر مسير السلطان من مرج عيون إلى صور وماكان عليها من الوقائع

قال: وجاءت السُّلطانَ كتبُ أصحابه الذين جعلهم يَزَكاً في مقابَلَة الفرنج على مدينة صُور يخبرونه أنّ الفرنج قد اجتمعُوا على عُبور الجسر الذي لصُور، وعزَمُوا على حصار صَيْدا. فسار جريدةً في شجعان أصحابه، فوَصَل إليهم بعد أنْ كانت الوقعَةُ بين الفرنج وبين اليَزَك.

وذلك أنَ الفرنج خرجُوا من مدينة صُور، فلقيَهم اليزكُ على مضيق وقاتلُوهم ومنعُوهم، وكانت حرباً شديدةٍ، وأُسِر من الفرنج جماعةٌ، منهم سبعةُ رجال من فرسانهم المشهورين، وقُتل من المسلمين جماعةٌ، ثم عجز الفرنج عن الوصول إلى صَيْدا، فعادوا إلى صُور والله أعلم.

ثم كانت لهم وقعة ثانية بعد وصول السّلطان مع المتطوّعة.

وذلك أنَ السّلطان لما جاء إلى صور أقام مع اليَزَك في خَيْمةٍ صغيرة ينتظرُ عودة الفرنج للخُروج؛ فرَكِب في بعض الأيام في عدَّةٍ يسيرة لينظُر إلى مخيّم الفرنج من الجبل، فظَنَّ مَنْ هُناك من المتطوّعة أنّه قصد الغَزَاة، فسارُوا مجدِّين وأوْغَلُوا في أرض العدّو وبَعُدُوا عن العسكر، وخلّفُوا السّلطان وراءَ ظُهورهم؛فبَعث مَنْ يردُّهم فلم يَرْجعوا، وظنّ الفرنج أنّ وراءَهم مَنْ يحميهم فأحجموا عنهم؛ فلّما علمُوا بانفرَادهم حملُوا عليهم حملةَ رجلٍ واحد، فقُتل منْهُم جماعةٌ من المعروفين؛ فشقَّ ذلك على السُّلطان والمسّلمين. وكانت هذه الوقعة في تاسع جُمادى الأولى.

فلمَّا رأى السّلطان ذلك انحدر من الجَبَل بمَن معه، وحمل على الفرنج فردَّهم إلى الجسر، فرمَوُا بأنفسهم في الماء، فغَرِق منهم مائة دَارع سوى مَنْ قُتِل، وعادُوا إلى مدينة صُور، فعاد السّلطان إلى تِبْنِين، ثم إلى عكا.

ثـم كانـت وقعةٌ ثـالثة في يـوم الاثنين ثامـن جمادى الآخرة صبر فيهـا الفريقان.

ذكر مسير الفرنج إلى عكّا ومحاصَرَتها

قال المؤرخ: لما كثُر جمع الفـرنج بصُور، على ماذكرنـاه مِنْ أنّ السّلطان كـان كلّما فتح حصنـاً أومـدينة بـالأمـان سار أهلُهـا إلى صُـور بأمـوالهم وأهليهـم، اجتمـع بها منهـم عـالمٌ كثير لايُحْصَـوْن، وأمـوالٌ كثيرة، ثـم إنّ الرُهبان والقُسُوس لبِسوا السـواد وأظهرُوا الحزن على خروج البَيت المقدّس عنهم، وتـابَعَهم جماعةٌ مـن المشهوريـن. فأخذهـم البترك ودخل بهم إلى بلاد الفـرنج يطُـوفُها بهم ويستَنْجـدُون أهْلَها ويستجيرُون بهم، ويحثّونهم على الأخذ بثأر البيت المقدّس.

وصـوَّرُوا صُورَة المسيـح عليـه السّلام وصُـورة رجـل أعرابي، والعَـربيّ يضربُه بين جَماعـةٍ، وقالوا: هذا المسيـحُ يضربُه محمّد نبـي المسلمين، وقد جَرَحه وقتَله.

فعظُم ذلك على الفـرنج وحشدُوا، حتّى النساء، فـإنّهم كانَ معهم على عكّا عدَّةٌ من النسَاء يبارزْن الأقـران، ومَنْ لم يستطع أن يخرج استأجر عنه أو يعطيهم مالاً، فاجتمع لهم من الرّجال والأموال مالا يُحصى كثرة.

واجتمعوا بصُور والبَحْـر يُمِدُّهم بالأموال والأقوات والعُـدد والذّخائر، فضاقت عليهم مـدينة صُور، باطنُها وظاهرها؛ فـأرادُوا قَصْد صَيْدا، فكان من ردِّهم ماذكرناه.

فاتّفقـوُا على قَصْدِ عكّـا ومُحَاصَرتها؛فسارُوا إليهـا بفَارِسهـم ورَاجِلهم، ولـزمُـوا البحْر في مسيرهـم، لايفـارقـونـه في السَّهـل والوعـر، ومـراكِبُهـم تُسايرُهم وفيهـا السّلاح والذّخائر، فكان رحيلُهم من مـدينة صُور في ثاني

شهر رجب سنَة خمس وثمانين وخمسمائة، ونُزُولهم على عكّا في مُنتَصف الشّهر. فتَّخطف المسلمون مِنْهم في مسيرهم وأخذوا مَن انفرد.

وجاء الخبر إلى السُّلطان برحيلهم، فَسار حتى قارَبَهم. ثمّ نزلوا على عكّا قبل وُصُوله إليها، ونَازَلُوها من سَائر جهاتِها براً وبحراً، فلم يَبْقَ للمسلمين إليها طريق، ونَزَل السُّلطان عليهم وضرب خَيْمته على تلّ كيسان وامتدّت ميمنتُه إلى تلّ العياضِيَّة وميسرَتُه إلى النّهر الجاري، ونزلت الأثقال بصَفُورِية، وسيّر الكتب إلى الأطراف يستَدْعي العساكر، فأتاه عسكر المَوْصل، ودِيار بكر، وسِنْجار، وغيرها من بلاد الجزيرة. وأتاه تقيّ الدّين ابنُ أخيه،ومظفّر الدّين بن زين الدين صاحب حَرَّان، والرّها، فكانت الأمداد تأتي المسلمين في البّر وتأتي الفرنج في البحر.

وكان بين الفريقين مدّةَ مُقامهم على عكّا حروبٌ كثيرة.

نحن نذكر المشهورَ منها على سبيل الاختصار؛ وأمّا الحُروب التي تكون بَيْن بعْضِ هؤلاء وبعْض هؤلاء، والمناوشات، فلو شَرَحْناها لطَال بها الكتَاب، لأن مُدّة هذا الحصار كانَتْ ثلاث سنين وشهراً.

وكان ابتداءُ القتال في مُسْتَهَلِ شعبان من السّنة. فقاتَلَهم السّلطان في ذلك اليوم ولم يَبْلُغ منهم غرضاً؛ ثم باكَرَهم القتَال واسْتدار عليهم من سائر جهاتهم إلى أنْ انتصف النّهار، وصَبَر الفريقان أعظم صبر، فحَمل تقيّ الدّين من الميمنة على مَنْ يَليه منهم وأزاحهُم عن مَوَاقفهم، فرَكِبَ بعضُهم بعضاً لايُلوي الأخ على أخيه، والتجأوا إلى مَنْ يَليهم من أصحابهم. وانْكَشف نصفُ البَلَد، وملَك تقيّ الدّين مكانَهم، ودَخَل المسلُمون البلد وخرجُوا منه، واتصَلت الطريق وزال الحصار. وأدخل السّلطان إلى البلد مَنْ أراد من الرّجال، وما أرَاد من الذّخائر، والأموال، والسّلاح؛ فكان مِنْ جُملة من أمره السلطان بالدّخول إليها الأمير حسام

الدين أبوالهيجاء السّمين، وقُتِل من الفرنج في هَذا اليَوْم خلقٌ كثير.

ثم كانت بينهم وقعات في ثامن شعبان، وتاسِعِهِ وعاشِره، وحادي عَشَره. ثمّ كانت وقْعَةٌ في تاسع عشر شعبان بين أهْل عكّا والعدّو فَقُتِل مَن في الطّائفتين وجُرح.

ثم كانت الوقعة الكبرى في الحَادي والعشرينَ من شعبانَ وذلك أن الفرنج اجتمعوا وتشاوَروا، وقالوا إن العسكر المصريّ إلى الآن ماقَدِم وهذا فِعْلُ السّلطان، فكيْفَ إذَا قدِمت عساكِرَه فأجْمعوا رأيَهم على مُناجزَة الحرب، وكانت عساكِرُ السّلطان متفرّقةً: منها طائفةٌ على حمص في مُقَابلَة طرابلس؛ وطائفةٌ تقاتِل مَنْ بقي بصُور؛ وطائفةٌ بالدّيار المصرية لحمايَة ثغْرَيْ : الاسكندرية، ودمياط، ومَنْ بقيَ من العسكر المصري إلى الآن لم يَصل؛ وهذا ممّا أطمع الفرنج في الظّهور.

قال: وأصبح المسلمون في هذا اليوم على عادتهم، منهُم من يتقدَّم إلى القتال، ومنهم مَنْ هو في خَيْمته، ومنهم من قد توجه في حاجته، فخرج الفرنج مِنْ معَسْكرهم كالجراد المنتَشِر قد ملأوا الأرض، فكانت وقعةٌ عظيمة ابتدأوها على المسلمين، ثم أنزل الله نصره علَيهم، فهزَموا الفرنج أقبَح هزيمة، وقُتل منهم من رؤسائِهم عشرة آلاف، وقتل من المسلمين في هَذِه الموقعَة من الغِلْمَان ومَنْ لم يعرف مائةٌ وخمسون، ومن المعْروفين الأمير مجلي بن مروان،والظّهير أخو الفقيه عيسى، وكانَ والي البيت المقدّس، جَمَعَ العِلْم والدّين الشجاعة، والحاجب خليل الهكّاري، وجمال الدّين ابن رَوَاحة الحمويّ، ولم يكن بالمصافّ، وأسِر منَ الفرنج مقدّم الدّاوية، وكان السّلطان قد أسَره فيما تقدَّم وأطلقه، فقتله الآن.

قال: وأمر السّلطان بجَمْع القَتلى وإلْقَائهم في النّهر الذي يشرَب منه الفرنج.

قال العماد الأصفهاني رحمه الله: ومن العَجب أنّ الذين ثبتُوا في هذه الوقعة لم يبلغوا ألفاً، ردُّوا مائة ألف، وآتاهم الله قوةً بعد ضعف.

قال ابن الأثير: وأُخذ في جُملة الأسرى ثلاث نسوة فرنجيّات كنّ يقاتِلْن على الخيل، فلما أُسِرن وأُلقي عنهنّ السلاح عُرِفن.

ذكر رَحيل السّلطان عَن مَنزلته وتمكّن الفرنج من حصار عكّا

كان رحيلُه في رابع شهْر رمضان من السّنة، وسَبب ذلك أنه لما قُتِل من الفرنج هذه المقتَلَةُ العظيمة جافَت الأرض منهم وتغيَّر الهواء، وحدث للأمزجة فسادٌ، وحصَل للسّلطان مرض القُولَنْج، وكان يَعْتريه، فأشار عليه الأمراء والأطباء بالانتقال، وقالوا:لو أراد الفرنج أن ينصرفوا لما قدَرُوا فإنّا كُفِينا شرَّهم، وإن أقاموا عدْنا إلى القتال، فوافَقَهم. وكان بئْس الرّأي.

ورحل السّلطان إلى منزلة الخرُّوبَة، وكتب إلى أهل عكّا يُعْلِمُهم بسبَب رحيله ويحثّهم على حِفظ البلد وغَلْق أبوابها.

قال: ولما رحَل السلطان بعسَاكره عن تلك المنْزلة أمِن الفرنج وانبسَطُوا، وانْبَثُّوا، وعادُوا إلى حصار عكّا في البّر والبحر، وشرعوا في حَفر خندقٍ عليهم يكون بينهم وبين المسلمين إن قَصَدُوهم وعَمِلوا سُوراً من تراب، وجاءوا بما لم يكن في الحُسْبان، هذا والسّلطان قد اشتدَّ به المرض فلم يستقِل منه إلى أن تكامَل حَفْر الْخَندق وعمل السّور من ترابه.

ذكر وصول العسكر المصري في البر والأسطول في البحر

قال: وفي مُنْتصف شوال سنة خمس وثمانين وصلت العسَاكر المصرية، ومقدَّمُها الملك العادل سَيْف الدّين، فلما وصلت قويتَ قلوبُ النَّاس، وأحضر من آلات الحصار شيئاً كثيراً، ثم وصل بعْدَه الأسطول المصري في خمسين قطعة ومقدَّمهم الأمير حُسَام الدّين لؤلؤ، وكان شهْماً شجاعاً، مِقْداماً ميمون النقيبة، خبيراً بقتال البحر؛ فوصل بغتةً، فوقع على بَطْسَةٍ كبيرة للفرنج، فغَنِمها وأخذ مافيها من الأموال الكثيرة والمِيرة، وعَبَر بذلك إلى عكّا؛ فسكنت نُفوس النّاس بذلك. وقال العماد: إنه ظفر ببطستين.

ذكر خبر ملك الألمان وماكان من أمره إلى نهايته

قال العماد الأصفهاني: ونُمِي الخبر بوصُول ملك الألمان إلى قسطنطينية في ثلاثمائة ألف مقاتل على قَصْد العُبور إلى بلاد الإسلام. فاستَنْفر الملكُ الناصرالجيوشَ والعساكر من كلّ جهة، وجهَّز القاضي بهاء الدين ابن شدّاد وأمره بالمسير إلى الدّيوان العزيز ببغداد وأن يمُرَّ على صاحب سنجار، وصاحب الموصل، وصاحب إربل، ويستدعِيهُم بأنفُسِهم وعساكرهم.

قال ابن شدّاد: فَسرتُ في حَادي عشر شهر رمضان سنَة خمس وثمانين وخمسمائة، وأبلغت الرّسائل، فأجابوا إلى ذلك، فعُدْت في خامس شهر ربيع الأول سنة ستٍّ وثمانين، وسبقت العساكر.

ثم وصلت عند انقضَاءالشتاء في شهر ربيع الأول وأمده الخليفة

بِحْمل من النِّفْط الطَّيَّار وحِمْلين من القنا، وتَوْقيعٍ بعشرين ألف دينار يُقبَض على الدّيوان العزيز من التجار، وخمسةٍ من الزَّرَّاقين.

وكان العدُوُّ قد اصْطَنع ثلاثة أبرجة من الخَشَب والحديد كالجبال، وألبسَها الجلود المنْقَاة بالخل، فيسّر الله تعالى على المسلمين إحْراقها، وذلك في الثَامن من شهر ربيع الأول.

قال: وكان السّلطان قد كتَب إلى مصر بعمارة الأسطول وإحضاره إلى عكّا، فوصل في يوم الخميس ثامن الشهر، فكانت الحربُ في هذا اليوم في ثلاثة مواضع في البحر، والحصار في البر، وكان النّصر بحَمد الله للمسلمين.

هذا ماكان من أمْر السّلطان لَمَّا بلغه خبرُ ملك الألمان.

وأما ملك الألمان فقال ابنُ الأثير في تاريخه الكامل:

وفي سنة ست وثمانين وخمسمائة خرج ملك الألمان من بلاده، وهم طائفةٌ من الفرنج من أكثرهم عددا وأشدّهم بأساً، وكان قد أزعَجَهُ ملك المسلمين البيت المقدّس، فجمعَ عسَاكره وسارَ بهم، وطريقهُ في مسيره على القسطَنْطينية. فأرسل ملك الرّوم بخبره إلى السّلطان، ووعده أنّه لايمكّنهُ من العبُور إلى بلاده، فلما وصل ملك الألمان إلى القسطنْطينية عَجزَ ملكُها عن مَنْعه من العُبور لكثرة جمُوعه، لكنّه منَعَ عنهم المِيرة، فقلَّت أزْوادُه؛ وسارُوا حَتّى عبرُوا خليج القسطنطينية، وصارُوا على أرض بلاد الإسلام، وهي مملكة الملك قلج أرسلان بن مسْعُود السلجقي. فلما وصلُوا إلى أوائلها ثارَ عليهم التُّرْكمان يسايرُونَهم، فيقتلون من انْفَرد منهم ويَسْرقون ماقدَرواعليه؛ فنالهم لذلك مشّقةٌ عظيمة، وهلك كثير منهم من الجُوع والبَرْد وكثرة الثّلوج.

فلمّا قارَبُوا مدينة قُونْيَة خرج إليهم الملك قُطْب الدين ملكشَاه بن قِلج أرسلان[ليمنعهم] فعَجَز عن ذلك، فعاد إلى قُونيةَ، فأسرعُوا السّير في إثرِه فنَازَلُوا قونية وأرسلوا إليه هدية وطلبوا منه أنْ يأذَن للرّعيّة في بَيْع الأقوات، فأذِنَ في ذلك.

وطلَبُوا من الملك قطب الدّين أنْ يأمُر رعيّتَه بالكَفِّ عنهم وأنْ يجهِّز معَهُم جماعةٌ من أمرائه رهائن، فخافهم، وسلّم إليهم نِّيفاً وعشرين أميراً كان يكرهُهم، فسارُوا بهم معَهُم، ولم يَمْتنع اللّصُوص وغيرُهم من أذّاهم؛ فقبض ملكُ الألمان على مَنْ معه من الأمراء وقيَّدَهم، فمنهم مَنْ مات في أسره ومنهم من فَدَى نفسه.

قال ابنُ شدّاد: وأعْوَزَهم الزّاد وعَرَاهم جُوعٌ عظيم، وعجَزوا عن حمل أقْمِشَتهم، فجمعوا عُدَداً كثيرة وسِلاحاً وجَعَلُوا ذلك بيدرا، وأضْرمُوا فيه النّار، لعجزهم عن حَمْله، ولَئلاّ ينتفع به غيرهم.

قال: وبقيت بَعْد ذلك رابيةٌ من جديد.

قال ابن الأثير: ثمّ سار إلى أن أتى إلى بلاد الأرمن، وصاحبها يومئذ لافون بن اصطفانة بن ليون الأرمني، فأمدّهم بالأقوات والعُلُوفات، وحَكّمهُم في بلاده، وأظْهر الطّاعة لهم، ثمّ سار إلى أنطاكيّة، وكان في طَريقهم نهرٌ فنزلوا عنْدَه، وعَبَر ملكُهم إليه ليغْتَسِل فيه، فغرق في مكان لايَبْلُغ الماء وسطَ الرّجل فيه، وكفّى الله شره.

وقال ابنُ شدّاد: إنه لمّا وصل إلى طرسوس سَبَح في النّهر فمرِض من شدَّة بَرْد الماءفمات؛ ولمّا مات سَلَقُوه في خلّ وجمَعُوا عِظامَه في كيس ليحملوها إلى القُدْس ويدفنوها به.

قال ابن الأثير: وكان معه ولدٌ كبير فملك بعْدَه وسار إلى أنطاكية،

فاختلف أصحابهُ عليه؛ وأحبّ بعضُهم العَوْد إلى بلادِه فتخلّف عنه، ومال بعضُهم إلى تمليك أخ له فعاد أيضاً، وسارَ هُو فيمن بَقِي معَهُ، فعرضَهُم، وكانوا نيّفاً وأربعين ألفاً وقع فيهم الوباء والموت، فوصَلُوا إلى أنطاكيّة وكأنّهم قد نُبِشوا من القبور، فتبرَّم بهم صاحبُها وحسَّن لهم المسير إلى عكّا، فسارُوا على اللاذقية وجَبَلة وغيرهما من البلاد التي ملكها المسلمون؛ وخرج أهل حلب وغيرها إليهم وأسرَوُا منهم خلقاً كثيراً، ومات أكثر مِمّن أسر.

قال: وبلغوا إلى طرابلس وأقاموا بها أيّاماً فكثُر فيهم الموتُ، فلم يَبْق منهم إلاّ نحو ألف رجل، فركبوا في البحر إلى الفرنج الذين على عكّا.

ولمَّا وصلُوا ورَأَوْا مانالهم في طريقهِم وماهُمْ فيه من الاخْتلاف عادوا إلى بلادهم، فغَرِقت بهم المرَاكب، فلمَ ينْجُ منهم أحد.

وقال ابن شدّاد: إنّهم لمَّا وصلوا إلى أنطاكية طلب ابنُ ملكِهم من صاحبها قَلْعتها لينقل أموالَه وخزانتَه وأثقاله، فسلَّمها إليه طمعاً في ماله، وكانَ كذلك، فإنّه لم يعُدْ إليه واستولى الإبرنس على مافيها.

قال: وجاءت فرقةٌ منهم إلى حصن بغراس وظنُّوا أنَّه للفرنج، ففتح لهم وَالي الحِصْن الباب وتسلّم منهم الأموال، وأسَرَ جماعةً منهم وقتل، وخرجَ إليهم العسْكر الحلبيّ فقتَل منهم وأسر، ثمّ أخَذَ مَنْ بقي منهم على طرِيق طرابلس، فخرج عليهم مَنْ باللاذقية وجبلة، فقتلوا منهم وأسروا.

ثم ركب الألمان في البحر من طرابلس بمَنْ بقي معه لِقَصْد عكّا، في أواخر شعبان، فثارت عليهم ريحٌ كسرت منهم ثلاث مراكب، ووصل الباقون إلى صُور، ثمّ إلى عكا في سادس شهر رمضان سنة ستٍّ وثمانين؛ وكان لِقُدومهم وقْعٌ عظيم.

وسيأتي ذكرُ ماتجدّد بعد وصولهم إلى عكّا، إن شاء الله تعالى، فلنذكر ماكان قبل وُصُولهم من الوقائِع.

ذكر الوقْعَة العادليّة على عكّا

كانت هذه الوقعة في يَوْم الأربعاء العشرين من جُمادى الأولى سنةَ ستٍّ وثمانين.

قال ابن شدّاد: لمَّا بلغ السّلطانَ وُصُول ملك الألمان إلى بلاد الأرْمن جهَّز بعض العساكر إلى البلاد المُتاخمة لطريق عَسْكَر العدّو،وتقدَّم أمْرُه بهدم سور طبريّة، وهدْم: يافا ، وأرْسُوف، وقيْسارية، وهدم سور: صَيْدا، وجُبيَل، ونَقْل أ هلها إلى بيروت،فلمّا علِم الفرنج أنّ العساكر قد تفرّقت نهضُوا للقتال بغتَةً وهجموا على الميمَنَة وفيها مخيَّم الملك العادل، فلما بَصُرَ بهم ركب فيمن معه، وتلاحَقَت به العَساكر، واقْتَتلوا، فكانت من أعْظم الوقَائِع، قُتل فيها خلقٌ كثير من الفرنج.

قال: ولقد خُضْت في الدّماء بدابّتي واجتهدت أن أعدّهم فما قدرت على ذلك لكَثْرتهم وتفرُّقهم؛ وشاهدتُ منهم امرأتين مقتولتين. وكانت هذه الوقْعَة فيما بين الظّهر والعصر في الميمنة وبَعْضِ القلب، ولم نفقد من المسلمين فيها غير عشرة معروفين.

قال: ولمَّا أخبر من بعكّا من المسلمين بهذه الوقعة خرجوا إلى مخيَّم العدّو من البلد، وجَرَى بينهم مقتَلَتةٌ عظيمة انتصرَ فيها المسلمون، ونهبُوا ماكان بخيام الفرنج من الأقمشة وغيرها، حتى الطّعام الذي في القُدُور، وسبَوُا النّساء.

قال: واختلف النّاس في عَدَد من قُتِل من الفرنج في هذه الوَقْعة، فقيل ثمانية آلاف، وقيل سبعة آلاف، ولم ينقصهم حَازِرٌ عن خمسة آلاف.

ذكر وصول الكندهري إلى عكّا نجدة للفرنج وماجدّده من آلة الحصار

قال: ثمّ وصل الكندهري في البحر نجدةً للفرنج في عدَدٍ كثير، أضعاف مانقص منهم، ففرّق الأموال واستخدم؛ ونصَب المجانيق على عكا فحرقها المسلمون؛ ثمّ نصب منجنيقين فأُحْرِقا في أوّل شعبان، وكان قد أُنْفِق عليهما ألف دينار وخمسمائة دينار، وأسِر من الفرنج سبعون في هذا اليوم ومن جملتهم فارس كبير عندهم فقتله المسلمون ثمّ جهّز الفرنج بُطَساً لمحاصرة بُرْج الذبان، وهو برج في وسَطِ البحر على باب ميناء عكّا، فعمدُوا إلى بَطْسة من البُطس وعملوا بُرجاً على صَارِيها وملأوه حَطباً ونَفْطا على أنهم يُلْحقون البطسة بِبُرج الذّبان، ثمّ يُحرقون البرج الذي على الصّاري. وجعلوا في البطسة وَقُوداً كثيراً حتّى يُلْقوه في البرج إذا اشتعلت فيه النيران، وعبئوا بطسةً ثانيةً وملأوها حطباً على أنها تدخل بين المراكب الإسلاميّة ثم يلهبونها فتحترق هي والبطس الإسلامية وجعلوا في بطسة ثالثة جماعةً من المُقاتلة. وقدموا البطسة نحو البرج، وكان الهواء مُسْعداً لهم، فلّما أحرقوا البطسة والبُرج الذّي قصدوا بهما إحراق بُطس المسلمين وبُرج الذّبان انعكس الهواء عليهم بإذن الله تعالى، فاحترقت البَطْستان، وانقلبت الثالثة بِمَنْ فيها من المقاتِلة، والله أعلم.

ذكر ماكان من أمر الفرنج بعد وُصُول ابن ملك الألمان إلى عكا وماتخذوه من آلات الحصار

قال: ولمّا وصَل ابنُ ملك الألمان القائمُ في الملك بعد أبيه إلى عكّا كان وصوله إليها في سادس شهر رَمضان سنة ستّ وثمانين وخمسمائة، فكان أول مابدأ به أنّه خرج إلى يَزَكِيَّةِ السّلطان وقاتَلهم، فقُتل من أصحابه وجُرح خلقٌ كثير، وانكسَروا ورَجعُوا إلى المخيَّم غروبَ الشّمس من ذلك

اليـوم؛ وقَتل مـن المسلمين اثنان وجُـرح اثنـان وجُرح جماعـة، فلمّا عايَـنَ ذلك رجـع إلى قتال مَـنْ في البلد، واتّخذ مـن آلات الحصار مـالم يُرَ قبـل ذلك مثلـه، فكان ممَّـا أحدثه آلـة عظيمة تسمّـى دبّابة يَـدْخُل مـن تحتها المقاتلة، وهـي من الخشب الملبَّس بصفائح الحديد، ولها مِـنْ تحتها عجلٌ يحرِّكُ من داخلها حتى تَنْطَح السُّور بشـدّةٍ عظيمة فتهدمه بتكرار نَطْحها، وآلة أخرى وهي قبو فيه رجالٌ تسحَبُـه وفيه كَبْشٌ، ورأس تلك الآلة ممدة شبه سكّـة المحراث، ورأس الكبش مـدَوَّر، هذا يهدِم بثِقَلـه، وتلك تهدِم بحدَّتها وثِقلها، وهي تسمَّى سفوداً، وأعـد السّتائر والسّلاليم وغير ذلك؛ وأعدّ في البحر بَطسَة عظيمةً،وصنع فيها بُرْجا بخُرطوم إذا أرادُوا قلبه على السّور بحرَكةٍ انقلب بحَركات ويبْقى طريقاً إلى المكان الذي ينقلبُ عليه تَمْشي عليهـا المُقَاتلـة، ونصـب المجانيـق وحكّمهـا على السّـور، وتوالـت حِجارَتُها حتـى أثّرت فيها أثراً بيّنـاً فأخذ المسلمـون سهْمَيْن عظيمين من سِهام الجُروخ وأحْـرَقوا نِصَـالهما حتَّى بقيَا كـالشُّعلة مـن النّار ثـم رُميا في منجنيق الفرنج فاحترق، واتّصل لهبهُ بالآخر فأحْرَقه.

ثـمّ زحف العـدّو على البلد في شهـر رمضان في خلْـق كثير، فأمهلهـم أهل البلـد حتى سحبـوا آلتهم المذكـورة، وقارَبُـوا أنْ يُلصُقوهـا بالسّـور ويحَصل منهم في الخَنـدق جماعةٌ كثيرة، فأطلقوا عليهـم الجُروخ والمجانيق والسَّهام والنيران، وفتحوا الأبواب على العدّو من كل مكان، وكبسُوهم في الخَنْدق، فـانْهَزَموا؛ ووقـع السّيف فيمَـن بَقي في الخنـدق منهُم، ثـم ألْقَوا النّار في كَبْشِهـم، فاحترق، وسَرَت نـارُه إلى السّفّود فـاحترق أيضاً، وعلَّـق المسلمـون في الكَبْش الكَـلاليب الحديـد فسحبُوه وهـو يَشْتعل، فحصـل عندهم، فـأطفأوه بالماء. ووزن ماكـان عليه من الحديد فكـان مائة قنطار بالشّامي فكانَ هذا اليوم من أحْسَن أيام الإسلام.

قال:واستأنف الفرنج عَمَل دبـابة أخرى وفي رأسِها شكْلٌ عظيم يُقال له ا لكَبْش، وله قَـرْنَان في طُـول الرُّمح كـالعُمد الغـلاظ،وسقفُوهـا هي

والكبش بـأعمدة الحديـد، ولَبَّسوا رأس الكَبْـش بعد الحَدِيـد بالنّحـاس، فلم يبق للنار عليهـا سبيل؛ وشحنُوها بالرّجـال. فنصب المسلمون عليها المجانيق ورمَـوْها بالحجارة، فأبعدت الـرّجال من حولها، ثمَّ رمَـوْها بحُزَم الحَطـب فأحـرقـوا مابين القـرنين، وخَسَفها المنجنيـق، وخـرج أهل عكّـا فقطعوا رأس الكبشين.

قال: وفي العشر الأوسـط من شهررمضـان ألْقَت الـرّيح بَطْسَتين فيهما رجَال ونساءٌ وصبيانٌ، ومِيرةٌ عظيمة وأغنام،فغنمهما المسْلمون.

وكـان في إحـداهما امـرأةٌ محتَشِمة كثيرةُ الأمـوال؛ واجْتَهـد الفـرنـج في استنقاذها فلم يُجَابُوا لِذلك.

وكان بينُهم في بقيَّة السّنة عدّةُ وقائع يطول شرحها.

وفي سابـع ذي الحجَّة هُـدِمَت قطعـةٌ عظيمة مـن سُور عكّـا فسدَّهـا المسلمون وقاتلوا عليها قتالا شديداً حتى أحْكَموا بناءَها.

وفي ثـاني ذي الحجّـة هلـك ابـنُ ملـك الألمان وكنـد كبيرٌ، ومـرض الكندهري، ووقع فيهم فناءٌ عظيم، والله أعلم.

ذكر وصول ملك افرنسيس

كان وصولُه في ثاني عشر شهـر ربيع الأوّل سنة سبع وثمانين وخمسمائة في سـتّ بُطَس عظـام مشحُونـة بـالمقاتلـة، وكـان مَلِكاً مُطـاعاً فيهـم، ووعَدَهم بالأمـداد خلْفه، وكان معه باز عظيم الخَلـق أبيضُ اللّون، فطَار منْ يَـده وسَقَط على سُـور عكَّا، فأخـذه المسلمون وأنْفـذُوه إلى السلطان؛ فَبَذل الفرنج فيه ألفَ دينار فلم يُجابوا لذلك.

قال: وزحف الفرنج على عكّا في يوم الخميس الرّابع من جُمادى الأولى سنة سبع وثمانين، ونصبُوا عليها سبْعَة مجانيق، وبلغ من مضايقتهم لها أنّهم كانوا يُلْقُون في خنْدَقها مايموت من دوابّهم ومايُؤْيَس منه ممّن أثخنَتْه الجراح، وانْقَسم أهلُ البلد أقساماً: قسم يَنْزلون إلى الخَندق، ويقطعون الدّواب ليسهُل نقلُها، وقسمٌ ينقلون ذلك إلى البحر، وقسم يذُّبون عنهم، وقسمٌ في المنجنيقات وحراسَة الأسوار.

قال: وكانوا قد صنعوا دبَّابَةً عظيمةً أربع طبقات، الأولى من الخَشب، والثّانية من الرّصاص، والثّالثة من الحديد، والرّابعة من النّحاس؛ فكانت تعلُو على السُّور وتركَبُ فيها المقاتلةُ؛ وقرَّبوها من السّور، فكاد أهلُ البلد يطلُبون الأمان؛ فأعَان الله على حرْقها.

وكان في جُمادى الأولى عدَّة وقعَات.

قال: ولمَّا حُرقت دبَّابات الفرنج وكِبَاشُهم وأبرجَتهم الخشب أقاموا أمَام خيامهم ممّا يلي عكّا تلاً مستطيلاً عالياً من التُّراب، فكانوُا يقفون وراءَه ويحوّلونه ليقرّبُوه من السّور؛ إلى أنْ صارَ بينه وبين السُّور مقدارُ نصف غلْوَة سهم. فَلَم تعْمَل فيه النّار.

ذكر وصول ملك الإنكلتير

كان وصولُه إلى عكّا في ثالث عشَر جمادى الأولى من السّنة بعد أن ملك في مسيره قبرص عنوةً؛ ووَصَل في أربعين قطعة، ولمَّا قدِم توالَى الزّحفُ والقتال، ثمّ مرِض مرضاً شديداً وجُرح الإفرنسيس، وهم مع ذلك لايَدَعُون القتال، هذا واللُّصوص يدخلون عليهم في خيامهم ويَسْرقون أقمشتهم ويخطَفونهم، فكانوا يَدْخلون على الرَّجُل من الفرنج وهو نائم فيُوقظونه، ويُشيرون إليه بالسَّلاح: إنْ تكلّمت ذبحناك، ويحملُونه ويخرجُون به إلى عسكر المسلمين. فعلُوا ذلك مراراً كثيرةً.

قال: ثمّ تردَّدت الرّسائل من الفرنج إلى السُّلطان مدافعةً بسبب مَرَض الإنكلتير؛ ثم استأذن في إهْداءِ جوارح، وقال إنّها قد ضعُفَت وتغيَّرت من البحر، وطلب أن يُسيَّر لها دجاجٌ وطيرٌ تأكله لتقْوَى به ثمّ تهدى للسّلطان. ففَهِم السُّلطان أنَّه يحتاجُ ذلك لنَفسه لأنّه حديثُ عَهدٍ بمرَض، فسيّر إليه ذلك، ثمّ أرسل في طَلَب فاكهةٍ وثَلْج، فأُرسل إليه. وهم مع ذَلك يُحَاصرون البَلَد أشدّ حصار.

ذكر استيلاء الفرنج على عكّا

قال: ثمّ اشتدّ الحصارُ في سابع جُمادى الآخرة، فركب السّلطان بالعَسْكر وجرَى قتالٌ عظيم إلى اللّيل، ولم يَطْعَم في ذلك اليوم؛ ولمَّا حَالَ بينُهما اللّيل عادَ إلى خيامه، ثمّ بَاكَر القِتال، فوصَلت مُطالعَةٌ مَنْ بالبلد يذكُرون أنّ العَجز قد بلغ بهم الغاية، وأنّهم في الغد مَتَى لم يُعْمَل مايمنعُ العدُّو طلبُوا الأمان وسلّموا البلد، فرأى السّلطان مهاجمة العدّو، فلم يساعِدْهُ العسكر، فضعُفَت نفوسُ أهل البلد، وتمكّن العدُّو من الخنادق فملكوها، ونقَبوا السّور وأحْرقُوه، فوقعت بدَنَةٌ من الباشورة ودخَل العدّو إليها، فقتل منها زهاء مائة وخمسين نفساً؛ وكان منهُم ستّة من أكابرهم، فقال أحدُهم: لاتقتُلوني حتى أرحِّل الفرنج عنكم، فقتله رجلٌ من الأكراد وقُتل الخمسة، فناداهُم الفرنج من الغَد احْفظُوا السّتَّة فإنّا نطلقُكم كلَّكم بهم، فقالوا: قدْ قتلناهم. فقوي عزمُ الفرنج على عَدم المصَالحة وأنّهم لايُطلقون مَنْ في البلد إلا بإطْلاق جميع الأسرى الذين في أيدي المسلمين، وتُعادُ إليهم البلاد السّاحليّة.

فصالحهم مَنْ بالبلد على أنّهم يسلّمون إليهم البلد وجميعَ مافيه من الآلات والعُدَد والمراكب، ومائتي ألف دينار، وألف وخمسمائة أسير مَجَاهيل الأحوال، ومائة أسير مُعَيَّنين، وصليب الصَّلَبُوت؛ على أنهم يخرجون بأنفسهم ونِسائهم وذَرَاريهم، ومَامعهم من أموالهم وأقمشتهم.

فكتبوا في ذلك إلى السّلطـان، فأنكر هذا الأمـر واستَعْظمه؛ وعزم على أنْ يكتُـب بالإنكـار عَلى مَنْ بعكّـا، وجمع أمـراءه وأصحاب المشُـورة، فما شعَر المسلمـون إلا وقدْ ارتفعت أعلامُ الكُفـر وصُلبانهُ على أسـوار البلد؛ وذلك ظُهر نَهار الجمعة السّابع عشرَ من جُمادى الآخرة،سنة سبعٍ وثمانين وخمسمائة.

فعظُمـت المصيبـةُ على المسلمين، وتحيَّز المسلمـون إلى بعـض أطـراف البلد، ثم تردّدت الرّسائل بينهُما على تقريـر القاعدة في خَلاصِ مَنْ بعكّا مـن المسلمين، فـاستقَـرت الحالُ على مـائة ألـف دينـار وستمائة أسير وصَليب الصلبوت، وأنْفَـذوا ثقاتهم وعاينُوا الصّليب في ثـامن عشر شهر رجب؛ ثم طلبوا أن يسلَّم ذلك إليهـم، فإذا صار عنْدَهم أطلقوا الأسرى؛ فامتنع السّلطان من ذلك إلا بعد تسْليم الأسْرى.

فلمّا رأوّه قد امتنـع منهُ أخرجُوا خيـامَهم إلى ظاهـر الخنَادق في الحادي والعشريـن مـنَ الشّهـر؛ ثـمّ ركبُـوا في وقـت العَصْر في اليـوم السـابـع والعشريـن من شهـر رجـب سنَـة سبعٍ وثمانين، وجمعُـوا الأسْرى، وحمَلُـوا عليهـم حَملـة الـرّجل الـواحـد، فقتلُـوهُـم صبراً، طعنـاً بالـرّمـح وضربـاً بالسّيف، رحمة الله عليهم؛ ولم يُبْقوا مـن المسلمين إلاّ أكابرهم. فلمّا اتصل الخبر بالسّلطـان حَمل المسلمُون عليهم، وجَـرَت بينهم حـربٌ عظيمة دام القتال فيها طـول النّهار، وتصرّف السّلطان فيما كان قـد حصَّله من المال، وأعاد الأسرى إلى أماكنهم، وردّ صليب الصَّلبُوت إلى مكانه.

ذكر ماكان بعد أخْذِهم عكّا

قال: ثـمّ سار الفـرنج إلى صَوب عسقـلان في مستهل شعبـان، وسار السّلطان في عـراضهم، والمسلمون يتخطَّفُـونهم ويقتلون منهـم ويأسرون؛ وكلّ أسير جـيء به إلى السّلطـان أمر بقتلـه، ثمّ كـانت وقعـةٌ عظيمة في

قال: ثـمّ سار السّلطـان إلى الرّملـة في سابـع شوّال وأقـام بها عشرين يـوماً، فجـرت وقعـاتٌ؛ منها وقعـةٌ في ثـامـن شوّال، وفي سـادس عشره، والدّائرة فيها على العدو.

وفي ثـامن عشر شـوّال اجتمَـع الملـكُ العادل والإنكلتير على طعَـام، وانْفَصلا على توادُد، وسأله الاجتماع بالسّلطان فامْتَنع السّلطان من ذلك.

ثمّ رحـل الفرنج في ثـالث ذي القعدة إلى الـرَّملة، وأظهروا قصـد بيت المقـدس والحربُ مستمـرّةٌ بين المسلمين وبينهـم، ورَحَـل السّلطـان إلى القُـدس في الثالـث والعشريـن من ذي القعـدة بنيّـة المقام بـه، وشرع في تحصينه.

ذكر وقوع الصُّلح والهُدْنة العامّةبين المسلمين والفرنج

قـال:ولم تـزل الحربُ قـائمـةً والمراسـلاتُ متّصلـةً بينهـم على طلـب الصُّلح، والسلطـان لايرضـى بما يختارونه، وهـم لايُوافقـون على مايـريدُه السّلطان، إلى الحادي والعشريـن من شعبـان سنة ثمانٍ وثمانين وخمسمائة، فوُقِّعـت هدنةٌ عـامّة في البّر والبحر، وجُعِل لهم مـن يَافا إلى قيْسَـارية إلى عكّا إلى صُـور، وأدخلوا في الصُّلح طرابلـس وأنطاكية. وأُخْرج مـن عمل يافا الـرَّملة ومَجْدَل يَابَا ومـن عمل عكّا الناصرة وصفُّـورية واشْتُرِط خرابُ عسقـلان، ووقعت المصـالحة مدَّة ثـلاثِ سنين وثلاثـة أشهر، أوّلها مُبتـدأ أيلـول الموافق لهذا التـاريـخ، وذَلك بعـد سـؤال ملك الإنكلتير وتكـرار رَسَائله.

قال: ثمّ أمـر السُّلطان أنْ يُنادى في الطُّرقـات والأسْواق: ألاإنّ الصْلح قد انتظـم، فمن شاء مِـنْ بلادنـا يدخل بـلادَهم ومَن شـاء من بـلادَهم يدخل بلادَنا فليفعل.

تاسع شعبان عند رَحيلهم من قيساريّة، انتصر فيها المسلمون، ثمّ رحل السّلطان فنزل شعراء أرْسُوف، وطلب ملكُ الإنكلتير الاجتماع بالملك العَادل خلوةً، فاجتمعا، فأشار بالصُّلح، وكان حاصلُ كلامه أنّه قد طال بيننا القتال ونحن في نُصرة فرنج السّاحل، ورأيي الصّلح، ويرجُع كلٌّ منا إلى مكانه، فقال له الملك العَادل: على ماذا يكون الصُّلح؟ قال: على أن تسلِّموا لأهل السّاحل ماأُخذ منهم من البلاد. فأبى الملكُ العادل.

ثم كانت وقعة أرْسُوف في يوم السّبت رابع عشر شعبان؛ وكانت الدائرة فيها على الفرنج.

ذكر هدم عسقلان

قال: ثمّ رحل السّلطان بعد وَقْعة أرسُوف في تاسع عشر شعبان،ونزل بالرّملة، واستشار أصحابه في أمْر عسقلان، فأشاروا عليه بتَخْريبها خشْيَة أنْ يستولي العدُّو عليها وهي عامرة، فتكون سبَباً لأخْذ البيْت المقدّس وقَطْع طريق مصر، فعَلِم السّلطان عجْز المسلمين عن حِفْظها لِقُرب عهدهم بقتال عكّا؛ فسارَ حتى أتى عسقلان، وأمر بتخريبها، وكان هُو وَوَلَدُه الملك الأفضل يستعملان النّاس في الخَراب خشية من حُضور العدّو فيتعذّر هدمُها، ثمّ حرَقَها بالنّار؛ والأخبار تتَواتَرُ من جهة العدُّو بعمارة يافا، واستمر الخرابُ والحريقُ إلى سَلْخ شعبان.

ثمّ رحل السّلطان عنها يومَ الثلاثاء، ثاني شهر رمضان فنزل على الرملة يوم الأربعاء، وأمَرَ بتخريب حِصْنها وتخريب كنيسة لدّ، وركَب جريدةً إلى القدس الشريف، فوصل إليه في يَوْم الخميس.

وفي يوم الجمعة ثاني عشر شهر رمضان من السّنة كانت بينهم وقعةٌ انتصر فيها المسلمون.

ووَقع له عزمُ الحج في ذلك المجلس.

ثمّ أمـرَ بإرْسَـال مائة نقَّاب لتخـريب سُور عسْقَـلان وإخْرَاج الفـرنج منها، فخرّبت، وكان يومُ الصُّلح يوماً مشهوداً واختلط العسكران.

ثمّ اشتَدّ المرضُ بـالإنكلتير فرحل ليلة الأربعاء التاسـع والعشرين من شعبان وسـار معه الكندهـري إلى جهة عكّا، ولم يبْـق بيافا إلا مـريضٌ أو عـاجز، ثـم أذِن السّلطان للنّـاس في الـرُّجوع إلى أوطـانهم، فسار عسكـرُ إرْبل والموصِل وسِنجَار؛ وقويَ عزمهُ على الحج.

ثـم عاد السّلطـان إلى القُدْس ورتّـب أحوالـه وعَيَّنَ الكنيسة التـي في شـارع قمامـة للبيمارستـان، ونقـل إليـه العقـاقير والأدويـة؛ وأدار سُـور القـدس، وأقـام بالقُـدس إلى يـوم الأربعـاء رابـع شوال، وخـرج في يـوم الخميس خامس الشهر قاصـداً دمشق، فلمّا انتهى إلى طبريَّة وصل إليه بهاءُ الـدين قـراقوش الأسـدي، وقَدْ خلـص من الأسْر، فـاستصْحَبه معـه وكَشَف القلاعَ والحصُون، ودخـل إلى دمشق في يوم الاثنين السادس عشر مـن شـوَّال سنـة ثمانٍ وثمانين وخمسمائة، وَجَلَـس النّـاس يـوم الخميـس؛ وأنشـده الشّعراء؛ وكـان مجلساً عـاماً، وعـمّ النّـاس فيه بعَـدْله. ولم يَـزَلْ كذلك إلى أن مات، رحمه الله تعالى.